المحاضرة رقم (٧)

الأبيقوريون

كانت المدرستان العظيمتان اللتان ظهرتا في العصر الهلينستي، وهما مدرستا الرواقيين والأبيقوريين، متعاصرتين في نشأتهما الأولى، ووُلد مؤسساهما، زينون وأبيقور، في وقتٍ واحد تقريبًا، واستقرا في أثينا، كلٌّ منهما رئيسًا على مذهبه الخاص، لم يسبق أحدهما الآخر في ذلك إلا بسنواتٍ قلائل؛ ولذا فالأمر متروك للهوى الشخصي وحده في أي الرجلين نبدأ به الحديث، وسأبدأ حديثي بالأبيقوريين؛ لأن مؤسس مدرستهم قد وضع لهم مذهبهم كله دفعة واحدة، على حين سارت الرواقية في طريقٍ طويل من مراحل التطور، امتد بها حتى الإمبراطور مرقص أورليوس، الذي مات سنة ١٨٠ بعد الميلاد.

ومرجعنا الرئيس في حياة أبيقور هو ديوجنيز ليرتيوس، الذي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد، ومع ذلك فالأمر هنا يصطدم بمشكلتين؛ الأولى هي أن ديوجنيز ليرتيوس نفسه مستعدٌّ لقبول الروايات التي ليس لها أهمية تاريخية إطلاقًا، أو هي قليلة الأهمية التاريخية، والثانية هي أن جزءًا من كتابه «حياة» يتألف من رواية الاتهامات الشائنة التي وجهها الرواقيون إلى أبيقور، وليس من الواضح أبدًا في كتابته إن كان بذكره هذه الروايات يثبت حقائق من وجهة نظره، أو يكتفي بمجرد ذكر اتهام من وراء ظهور أصحابه؛ ذلك أن الحوادث الشائنة التي انتحلتها الرواقيون انتحالًا، وجعلوها حقائق ينسبونها إلى الأبيقوريين، إنما انتحلوها ليذكروها في صدد ثنائهم على مستواهم الخلقي الرفيع، لكنها ليست حقائق عن أبيقور نفسه، مثال ذلك رواية تقول عن أبيقور إن أمه كانت كاهنة مشعوذة، وعن ذلك يقول ديوجنيز:

»إنهم [أي الرواقيين في الأغلب] يقولون إنه كان يطوف بالمنازل منزلًا بعد منزل، مصطحبًا أمه تقرأ دعوات التطهير، وقد كان يعاون أباه في التعليم الأوَّلي لقاء أجر زهيد«.

ويعلق «بيلي «Bailey[١] على هذا بقوله: «إنه إذا كان هنالك أي نصيب من الصدق للرواية التي تقول بأنه كان يطوف مع أمه على هيئة خادم كنسي، يتلو عبارات التعزيم التي تضعها، فلا بُدَّ أن تضيف إلى ذلك أنه يجوز جدًّا أن أثَّر فيه هذا كله، وهو بعدُ في أعوام طفولته، بحيث كره الخرافة؛ لأن كراهية الخرافة قد صارت فيما بعدُ بارزةً في تعاليمه.» وهذه

النظرية تُغري بالأخذ بها، لكننا إذا تذكَّرنا إمعان العصور المتأخرة من الأزمنة القديمة، في عدم التزامها أي حد في انتحالها الأخبار الشائنة، فلست أظن أنها نظرية يمكن قبولها؛ إذ لا يعود لها في رأينا أي أساس على الإطلاق؛[٢] فلدينا مقابل هذه النظرية حقيقة ثابتة، وهي أنه كان يحب أمه حبًّا جاوز بشدته حدود الحب البنوي المألوف.[٣]

ومع ذلك، فيظهر أن الحقائق الرئيسية في حياة أبيقور على درجةٍ كبيرة من اليقين؛ فأبوه أثيني فقير من الأثينيين المستعمرين لساموس، ووُلد أبيقور سنة ٣٤٢-٣٤١ق.م. لكنا لا نعلم إن كان مولده قد وقع في ساموس أو في أتكا، وأيًّا ما كان الأمر، فقد أنفق أعوام صباه في ساموس، وهو يقول إنه أخذ في دراسة الفلسفة وهو في الرابعة عشرة من عمره؛ فلما بلغ الثامنة عشرة، في نحو الوقت الذي مات فيه الإسكندر، ذهب إلى أثينا ليثبت نسبته إلى القومية الأثينية فيما يظهر، وبينا هو في أثينا، طُرد الأثينيون المستعمرون من ساموس (٣٢٢ق.م.) ولجأت أسرة أبيقور إلى آسيا الصغرى، حيث لحق بها هناك، وقد تعلم الفلسفة في طاوس، في ذلك الحين، أو قد يكون قبل ذلك، على يدَي رجل اسمه «نوسيفانيس» الذي يغلب أن يكون من أتباع ديمقريطس، وعلى الرغم من أن فلسفته أيام نضجه، تصطبغ بمذهب ديمقريطس أكثر مما تصطبغ بمذهب أي فيلسوفٍ آخر، فإنه لم يذكر «نوسيفانيس» إلا بعبارات الازدراء، وكان يشير إليه بعبارة الحيوان الرخو.

وأسس مدرسته سنة ٣١١ق.م. التي كانت بادئ أمرها في «متلين» ثم في «لامبساكوس»، ثم كانت ابتداءً من سنة ٣٠٧ق.م. في أثينا حيث مات عام ٢٧٠-١ق.م.

وكانت حياته في أثينا هادئة، بعد أعوام الشباب التي ملأها بالجهاد الشاق، لم يعكر صفوه هناك إلا اعتلال صحته، وكان له منزل وحديقة (والظاهر أن حديقته لم تكن متصلة بمنزله)، وكانت الحديقة هي المكان الذي يُعلِّم فيه، وكان إخوته الثلاثة مع آخرين أعضاءً في مدرسته منذ بدايتها، لكن جماعته اتسعت في أثينا، ولم يقتصر هذا الاتساع على تلاميذه في الفلسفة فحسب، بل شمل كذلك الأصدقاء وأبناءهم، وطائفة من العبيد والغواني، وقد كانت صلته بهذه الطائفة الأخيرة مدعاة للتشنيع عليه من أعدائه، بغير حق في أغلب الظن، فإنه كان يتصف بالقدرة الخارقة للمألوف، على عقد أواصر الصداقة الإنسانية الخالصة، وكتب

رسائل لطيفة لأبناء أعضاء جمعيته الصغار، ولم يتكلف ذلك الوقار والتحفظ في التعبير عن عواطفه، كما كان ينتظر من الفلاسفة الأقدمين، وخطاباته طبيعية لا تكلف فيها إلى درجةٍ تثير العجب.

كانت حياة الجمعية غاية في البساطة، وذلك تمشيًا مع مبدئهم من جهة، وبسبب قلة ما لديه من المال (بغير شك) من جهةٍ أخرى، وكان طعامهم وشرابهم الأساسيان هما الخبز والماء، اللذين وجدهما أبيقور كافيين كفايةً تامة، ويقول في ذلك: «إنني لأنتشي باللذة الجسدية حين أعيش على الخبز والماء، وإني لأبصق على لذائذ الترف، لا احتقارًا لها في ذاتها، بل لما يترتب عليها من مضايقات.» وكان اعتماد الجمعية في ماليتها على التبرعات، أو قل إن التبرعات كانت على أقل تقدير تكون جزءًا من ماليَّتها، فهو يكتب قائلًا: «أرسل إليَّ قطعة من الجبن المحفوظ، حتى أقيم مأدبة عندما أريد.» ويكتب إلى صديقٍ آخر فيقول: «أرسل إلينا من لدنك ما نقيم به أود أجسادنا المقدسة، أصالة عن نفسك ونيابة عن أبنائك.» وكذلك يكتب قائلًا: «إن كل ما أريده من تبرعٍ هو ما آمر ... التلاميذ أن يرسلوه إليَّ، حتى لو كانوا من الـ «هيبربوريين»، فإني أريد أن أتلقى من كلٍّ منكم مائتين وعشرين دراخمة[٤] كل عام فقط.» لقد عانى أبيقور طيلة حياته من اعتلال صحته، لكنه عرف كيف يتحمل ذلك في رباطة جأش عظيمة؛ فقد كان هو — لا أحد أتباع الرواقيين — أول من ذهب إلى أن الإنسان ينبغي أن يكون سعيدًا في حالة الإملاق الشديد، ولقد كتب خطابين؛ أولهما قبل موته بأيامٍ قلائل، وثانيهما يوم موته، يدلان على أنه كان محقًّا بعض الشيء في اعتناق هذا الرأي، وردَ في الخطاب الأول ما يأتي: «لقد بلغ الاحتباس آخر درجاته معي قبل كتابة هذا بسبعة أيام، وعانيت من الآلام ما يأتي على الحياة عند سائر الناس، فلو حدث لي شيء، فارْعَ أبناء متردورس لأربعة أعوام أو خمسة، لكن لا تنفق عليهم أكثر مما تنفق عليَّ الآن.» ووردَ في الخطاب الثاني ما يأتي: «إني أكتب إليكم هذا في هذا اليوم الذي أسعد فيه سعادةً حقيقية، وهو اليوم الذي أُشرف فيه على الموت، إن الأمراض في مثانتي ومعدتي تستشري وتزداد، لا يحدُّ من قسوتها المألوفة شيء، لكني أحس إلى جانب ذلك غبطة قلبية حين أستعيد بالذاكرة ما جرى بيني وبينكم من أحاديث، فتولوا أبناء متردورس برعايتكم الكريمة، كما عوَّدتموني من

إخلاصكم منذ الصبا لشخصي وللفلسفة.» ومترودورس هذا كان أحد أتباعه الأولين، ولحقه الموت، وقد خص أبيقور أطفاله بشيء في وصيته.

من كتاب رسل الفلسفة الغربية